لحظة انهيار شركاء الغزو الأميركي للعراق

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

ما نتحدث عنه اليوم هو العراق بعد ثمانية عشر عاما من أبشع غزو عسكري شهده العصر الحديث، حين أعلنت القوات الأميركية في التاسع من أبريل 2003 إسقاط النظام في مشهد هوليوودي تم فيه إنزال تمثال رئيس النظام السابق صدام حسين بعد تغطيته بالعلم الأميركي وتسليمه لمستخدمين عراقيين دفعت لهم أجور سحل التمثال بحماية الدبابات الأميركية.

مؤكد أن بين المبتهجين بنهاية الحكم السابق من انتظر تلك اللحظة التاريخية ووجد أن الأميركان هم المُخلصون، وليسوا قادة النظام الإيراني الذين وعدوا بثورة شيعية لم تنجح عام 1991، على الرغم من تخطيطهم ودعمهم للمنتفضين بالسلاح الذي تدفق إلى داخل العراق، بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويت، حيث سقطت معظم المحافظات العراقية بيد مجاميع من الغوغاء وحصلت خلالها مجازر ثمنها دم عراقي سُفك بسخاء.

حكام العراق يمرون الآن بأسوأ أوقاتهم رغم مظاهر الكبرياء المزيف وهم على حافة الهاوية بعد أن أفشلت ثورة شباب أكتوبر معادلة الغزو وفتحت الطريق لعهد مشرق ينتسب إلى الهوية العراقية

كانت عواطف بعض العراقيين وبهجتهم بسقوط النظام الورقة الرابحة الأولى بيد أصحاب المشروع التدميري الشامل (زعماء اليمين الأميركي والولي الفقيه الإيراني). لا تهم الإحصائيات الرقمية لعدد من كانوا مؤيدين للنظام الدكتاتوري قبل التاسع من أبريل 2003 أو معارضيه. المهم هو دخول الجميع عبر بوابة قاعة التنويم المغناطيسي تحت تأثير هلوسات المظلومية الشيعية والدكتاتورية الصدامية والحرية والديمقراطية.

قلّة من بين العراقيين فلتت من ماكينة المَغنطة الجهنمية وفرق الموت ممن كانوا خارج العراق، أو من الذين استطاعوا الهروب نتيجة حسهم الأمني والسياسي العالي في قراءة المشهد من علماء وأطباء ومهندسين ومثقفين. هؤلاء شكلوا إلى جانب الجيل الشبابي الجديد الذي تكوّن بعد عام 2003 نواة الوعي والتمرّد الثوري ضد الأحزاب الإسلامية عبّرت عنه انتفاضة أكتوبر 2019.

كان منتظرا أن يتمّ التغيير من النظام الدكتاتوري إلى نظام مدني جديد، بعد مرحلة انتقالية قصيرة عبر "انقلاب عسكري" من داخل مؤسسة الجيش الوطنية بعد فشل المشروع الإيراني بالانتفاضة "الشعبانية" عام 1991، حيث اشتغل بعض المعارضين الوطنيين العراقيين على ذلك الحلّ، مثل إياد علاوي، وفق خطة للمخابرات الأميركية. لا تقنع أحدا فكرة عدم قناعة الأميركان بالانقلاب، وهم أصحاب الإرث الطويل في صناعة النظم عبر الانقلابات العسكرية، لكن مشروع قادة اليمين الأميركي، وفي مقدمتهم وزير الدفاع رونالد رامسفيلد، كان تغيير النظام كمقدمة لتنفيذ مشروع التفتيت والفوضى الخلاقة، فتم تغيير أسلوب خطة التغيير من الانقلاب إلى الغزو خلال أيام، لدرجة أدهشت من كانوا يتوقعونه ومن بينهم أحمد الجلبي.

مراجعة سريعة لاعتذارات الرؤساء الأميركان الذين تورطوا بقرار الغزو العسكري أو ممن راقبوه ورفضوه تعطي دلالة لا يريد الكثيرون من خبراء السياسة الأميركان أو بعض السياسيين والمثقفين العراقيين الاعتراف بها، وهي أن هزيمة مشروع الغزو والاحتلال تتطلب رحيل جميع أركانه وسحب الثقة عن توابعه وليس دعمهم.

المتورط الأول في الجريمة جورج بوش الابن، قال إنه ضُلّل. ولا ندري من ضلّله! هل هو ذلك الوسيط الروحي بينه وبين الرب لتنفيذ حرب يأجوج ومأجوج، وزير خارجيته كولن باول الذي أراد تمرير قرار من مجلس الأمن الدولي لشن الحرب، ملوحا بيديه بفرية قناني المواد الجرثومية؛ اعترف في ما بعد بأن خطابه ذاك كان وصمة عار في حياته المهنية. وكشف النائب السابق لمدير الـ"سي.آي.أيه" مايكل موريل في كتابه "الحرب الكبرى" كيف مرر نائب الرئيس ديك تشيني فقرات أضافها مساعدوه ومساعدو رامسفيلد، وعلى رأسهم جون هانا ودوغلاس فايث وسكوتر ليبي، لتمرير أكذوبة أن صدام حسين لعب دورا في هجمات 11 سبتمبر 2001 وأنه كان يملك أسلحة الدمار الشامل. ليعلن مسؤولو المخابرات الأميركية براءتهم من تلك الكذبة.

الرؤساء الأميركان الثلاثة من بعد بوش جميعهم ما بين رافض ومعتذر، باراك أوباما وقف ضد مشروع الحرب وسحب الجنود من العراق في ديسمبر عام 2011، لكنه سلّم العراق لإيران. دونالد ترامب وصف الغزو بأنه "أسوأ قرار في تاريخ الولايات المتحدة". والرئيس جو بايدن اعتذر عن تأييده السابق للحرب على العراق.

الخط الثاني في إدارة بوش من المستشارين والمفوضين نفضوا أيديهم من مجموعات التدمير والطائفية والفساد المحلية التي تولت السلطة في العراق؛ بول بريمر مثلا كشف بالأسماء المستوى المتدني لمن أعطاهم وكالة الحكم "الشيعي" في كتابه "عام قضيته في العراق" واصفا إياهم "ما بين مستعجل الحصول على المال، وضعيف الشخصية منتظرا ما تقرره ولاية الفقيه الإيراني".

في بريطانيا، الحليفة التي لولاها لما نجح مشروع الغزو العسكري، أعلن توني بلير رئيس وزرائها حليف بوش وقت الغزو، عن اعتذاره عام 2016 بعد تقرير جون تشيلكوت البريطاني بعدم قانونية الحرب على العراق.

اختفى قادة اليمين الأميركي بعيدا عن مراكز القيادة في المسؤوليات الرسمية الأميركية العليا (البيت الأبيض والبنتاغون والمخابرات) نهاية إدارة بوش الابن، أمثال ديك تشيني، دونالد رامسفيلد، بول وولفويتز، كونداليزا رايس، روبرت كاغان وزلماي خليل زادة. لكن رغم هزيمة مشروعهم في العراق مازالوا يبررون الغزو العسكري تلبية لنظريتهم في الفوضى الخلاقة المندثرة.

استعراض الوقائع والحقائق لا يضيف جديدا لسنوات الاحتلالين خلال الثماني عشرة سنة الماضية، لكن المهم أن تفكيك الغزو بإدانة القادة المشرّعين والمنفذين الأميركان لأنفسهم لم يوقف حالة التداعي الأخطر للاحتلال الأميركي ذاته، حيث انتقلت تبعية مشروع الغزو إلى إيران التي حوّرت الخطاب الخارجي من الفوضى الخلاقة إلى فكرة تصدير الثورة الخمينية وعقائدها ونشرها بقوة السلاح بين العراقيين عن طريق الوكلاء.

هذا الانتقال الوظيفي لهوية مشروع الغزو واستمراره يحمل تفصيلات كثيرة دامية بعد أن تم تفكيك المجتمع العراقي إلى فريقين، الأول موال لطهران والثاني عراقي وطني معارض أصبح مؤثرا في الخمس سنوات الأخيرة. هناك أسئلة على هامش هذا الانتقال مازال الجمهور العراقي يبحث عن أجوبة لها، من بينها ما يعود زمنه إلى اللحظات الأولى للاحتلال وأسباب عدم إفتاء مرجعية السيستاني في النجف بمحاربة المحتلين الأميركان، مثل فتواه في الجهاد الكفائي ضد احتلال "داعش". ولو حصل مثل ذلك ضد الغزاة الأميركان لكانت صورة العراق مختلفة عما هي عليه الآن.

الأسئلة الأخرى تتعلق بما أفرزه واقع الاحتلال الأميركي من أنصار موالين للحكم الجديد وضعوا أنفسهم زورا في خانة ممثلي "الطائفة السنية"، التي أصبح رجالها مطاردين متهمين وأغلب النساء أرامل مفجوعات بفقدان رجالهن وضياع مستقبل الملايين من أطفالهن اليتامى. هذه الفئة من مدعي التمثيل السياسي السني هي الأكثر خطورة في خيانة الوطن والملّة.

من الطبيعي، استنادا إلى تاريخ الشعوب والأمم، أن تتم محاكمة مناصري ومشاركي خدم احتلال العراق، لا أن تُقلب المعادلة فيستمروا بالحكم تحت دستور وقوانين الحاكم بول بريمر ومصادقة المرجع السيستاني. ثم تتم عمليات وقحة بتكريم قادة الغزو الأميركي على أرض بغداد، مثلما حصل في إهداء إبراهيم الجعفري لدونالد رامسفيلد وزير الغزو سيف "ذو الفقار"، أو في زيارة نوري المالكي لمقبرة القتلى الأميركان في واشنطن عرفانا لهم بالجميل. لتستمر حملة الخداع الرخيص المكشوف بالدعوات الحالية لإخراج القوات الأميركية التي حضرت بدعوة رسمية عراقية عام 2014.

هذه الصورة معتمة وقاسية، فالذين يحكمون نهبوا وقتلوا وشرّدوا الأبرياء وأشاعوا الظلم وثقافة سرقة المال العام، وساعدوا المحتل الأميركي ثم الإيراني في تدمير مؤسسات الدولة العراقية كالجيش، وتفكيك المجتمع العراقي طائفيا في ظل الفوضى. هؤلاء يمرّون الآن بأسوأ لحظة تاريخية، رغم مظاهر الكبرياء المزيفة المرسومة على وجوههم. هم الآن على حافة الهاوية والسقوط، بعد أن أفشلت ثورة شباب أكتوبر 2019 معادلة الغزو المركب أميركيا وإيرانيا، وفتحت الطريق لعهد مشرق جديد ينتسب إلى الهوية العراقية.

في هذه اللحظات تنتاب حكام العراق حالة خوف تستدعي التمسك بالسلطة وإشاعة فكرة الخوف بين أنصارهم، وتقود إلى تنفيذ أبشع الإجراءات البوليسية ضد الناس. لقد سمعوا خلال الأيام القليلة الماضية بخبر مواجهة عادل عبدالمهدي رئيس الوزراء السابق محاكمة متوقعة في باريس في سبتمبر المقبل، قدمتها أسر شهداء ومختطفين حملته مسؤولية تلك الجرائم. وقد منعته المحكمة الفرنسية من مغادرة فرنسا، باعتباره يحمل الجنسية الفرنسية، وفق ما نشرته كبرى الصحف الفرنسية.

في مزج دراماتيكي ما بين لحظات الوقوف على حافة الهاوية والخوف المسيطر على حكام العراق تحصل عملية الانهيار في النفس، بينما ترتفع ثقة شباب العراق بالنفس. فإرادة شعب العراق لا بد أن تنتصر.

رسائل «الانسحاب» الأميركي من المنطقة

بهاء العوام
صحافي سوري

عندما سكن دونالد ترامب في البيت الأبيض، اختبر الشرق الأوسط "تخلي" الولايات المتحدة عن نفوذها جزئيا لصالح قوى إقليمية ودولية، فماذا كانت النتيجة؟ لم تصبح بلاد العرب أكثر أمانا، ولم تهدأ فيها النزاعات، ذلك لأن أي بقعة يغادرها الأميركيون تتسابق إليها الجيوش والمرتزقة والطامعون بخيراتها.

لا نبالغ بالقول إن الولايات المتحدة تمتلك القول الفصل في جميع قضايا المنطقة. كما لا يخفى على أحد أن قلب العالم القديم مازال وجهة جذابة للعديد من القوى الدولية والإقليمية كمناطق استثمار وتجارة وصناعة من جهة، وكجبهات لتصفية الحسابات وعقد المساومات والصفقات السياسية من جهة ثانية.

لا تحتاج إلى بذل جهد كبير في تتبع دور الولايات المتحدة بالمنطقة، بإيجابياته وسلبياته. فهي لم تكن يوما الملاك الذي ينشر السلام حيثما يحط، ولكن نكران وجود فائدة لحضورها في بعض الأزمات والأماكن، يأتي في سياق تنظير يتجاهل حقيقة واضحة مفادها أن العالم حتى اليوم يدار بلغات القوة والمصالح والنفوذ.

وإلى حين استبدال السلام بكل اللغات المستخدمة في العلاقات الدولية، تفرض الواقعية السياسية التعامل مع مصالح القوى العالمية والمفاضلة بين تحالفاتها على أساس المصلحة الوطنية أولا والعربية ثانيا والإقليمية ثالثا، فمن الطبيعي أن تختلف أولويات ومصالح دول المنطقة داخليا وخارجيا، ولكن ذلك لا يجب أن يلغي حقيقة وجود قواسم وأهداف مشتركة بينها في المصلحة القومية، إن جاز التعبير.

واقع الحال يقول إن تبدل الأولويات الأميركية في المنطقة خدم تركيا وإيران وروسيا والصين. لقد استفادت الدول الأربع كثيرا من التباينات الداخلية التي تعيشها الولايات المتحدة إزاء الشرق الأوسط منذ وصول باراك أوباما إلى السلطة عام 2009، ولكنها لم تستطع مجتمعة أن تلغي النفوذ الأميركي أو تهمشه.

خلال نحو عقدين من الزمن، تغيرت ملامح "الشرق الأوسط الكبير" الذي أطلقه الرئيس الأميركي جورج بوش الابن عام 2004 عدة مرات، بدءا من التسمية وانتهاء بالخارطة، ولكن بقيت للولايات المتحدة اليد الطولى فيه. ارتكبت واشنطن خلال هذه السنوات الكثير من الأخطاء وتبدلت سياستها عدة مرات تبعا للمتغيرات ولأولويات الإدارة التي تسكن البيت الأبيض، ولكنها لم تتنازل يوما عن نفوذها في المنطقة.

لا يهم كم يبلغ عدد أفراد القوات الأميركية اليوم في المنطقة إن كانت واشنطن تدير البحر والسماء ولقمة العيش في دولها. وماذا يفعل الصراخ والتهديد والخطب النارية وصواريخ الكاتيوشا، طالما أن كل دول العالم عاجزة عن تغيير واقع الحال على الأرض في أي أزمة دون التفاوض مع البيت الأبيض والاتفاق معه.

على ضوء هذه المعطيات يجب قراءة التصريحات الأميركية بشأن الانسحاب من العراق والشرق الأوسط. وإن كانت لا تحمل أي جدولة زمنية قريبة أو بعيدة، فهي تبعث برسائل تستحق تأملا وقراءة بين السطور، من أجل وضع خطط للتعامل مع متغيرات قد يحملها العقد الجديد من الألفية الثالثة في السياسة الخارجية الأميركية.

أول هذه الرسائل أن الولايات المتحدة باتت تعد العدة لحرب عالمية باردة وساخنة من أجل إعادة تثبيت موقعها كقطب عالمي أول، والمنطقة العربية ستكون ساحة من عدة ساحات لمعارك هذه الحرب. وبقدر ما تصطدم مصالح واشنطن مع خصومها فوق هذه المنطقة، بقدر ما سيقع الضرر على الدول والأنظمة والشعوب.

التصريحات الأميركية بشأن الانسحاب من العراق والشرق الأوسط وإن كانت لا تحمل أي جدولة زمنية فهي تبعث برسائل تستحق التمعن من أجل وضع خطط للتعامل مع متغيرات قد يحملها العقد الجديد

لن تخوض الولايات المتحدة الحرب بمفردها، وحلفاؤها في الغرب والشرق لن يدخروا جهدا في التواجد بكل مكان وزمان تستدعيه هذه الحرب. لذلك لا بد لدول المنطقة العربية من اختيار تحالفاتها للمرحلة المقبلة بدقة متناهية. فالخصومة مع الولايات المتحدة ستكون مكلفة، ولن يكون للحياد متسع كبير عندما تشتعل جبهات الحرب.

من رسائل الانسحاب الأميركي المبهم أيضا، يأتي الاستعداد لملء أي فراغ قد يحدث جراء إعادة تموضع وليس انسحاب، للقوات الأميركية في أي زمان أو مكان بالمنطقة. وفي هذا تحديدا يجب أن تتنبه الدول العربية مما حصل في سوريا والعراق وليبيا، فلا تترك الأبواب مشرعة أمام الأتراك والإيرانيين وغيرهم، ولا تخدع نفسها بنظرية النأي بالنفس عما يجري خارج حدودها وكأنه لا يمس أمنها واستقرارها.

ثمة رسالة مهمة أخرى تتعلق بالتقدير الصحيح لإمكانيات العمل العربي المشترك في مواجهة التحديات المقبلة. لا يمكن للعرب حلحلة مشاكلهم دون تعاون مع القوى العالمية. كما أن العديد من دول المنطقة تعاني أزمات تحد من إمكاناتها، وخلاص هذه الدول من أزماتها يحتاج آذانا صاغية وتفهما من الأشقاء، وإلا ستبحث عن دعم وحلول في الجوار الإقليمي الطامع بها، والمتربص بأخطائها وعثراتها ونقاط ضعفها.

إلى حد كبير، التقطت بعض الدول العربية رسائل "الانسحاب" الأميركي من الشرق الأوسط، وقرأت من خلالها كل ما شهدته المنطقة من تغيرات خلال السنوات الماضية. هذه الدول تبذل اليوم جهودا كبيرة في صياغة تحالفات وتفاهمات جديدة، عربية – عربية من جهة، وعربية – دولية من جهة أخرى، تخرج المنطقة من عنق الزجاجة، وتقف بها على أعتاب مرحلة جديدة تكون فيها أكثر فاعلية وتأثيرا دوليا.

لا يزال هناك كثير من العمل، وقد تفشل جميع هذه المحاولات العربية لتحصين المنطقة وترسيخ حضورها على الخارطة العالمية، ولكن المؤكد أن الدول التي باتت تقرأ السياسة الدولية بعين إستراتيجية وأخرى تكتيكية، لن تندم ولن تخسر كثيرا أينما اتجهت مسارات "الحرب العالمية المقبلة"، وكيفما تغيرت ملامح الشرق الأوسط.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk